Love story

أغنية شعبية غناها : Andy Williams

فى فيلم يحمل نفس الاسم 1970)

موسيقا : فرانسيس لاى

دوسَو

مثل علاقةٍ شتويةٍ بين قُنْفِذَيْن؛ تمضي علاقتهما، لن يأتي اليوم، وعليها أن تحاول قتلَ الوقتِ؛ قبل أن يجهز عليها الانتظار، يموج شعرها الأسود الطويل بعشوائيةٍ؛ مُهتاجًا، تَطْمَئِن من المرآةِ على حالها كلّ يوم.. جميلة ووحيدة أيضًا.

الفتاة العاج تدور بداخل صُندوق الموسيقى على أنغام الموسيقى الإلكترونية التي تُكرِر مقطعًا محددًا من لحن "love story" القديم جدًّا، حتى ينتهي المفتاح من دورته كاملة عائدًا إلى وضعه الأول.

من صُندوق الموسيقى إلى هاتفها المحمول؛ إذ تحتفظ بالأغنية الأصلية من الفيلم، إلى الأسطوانة في مُشَغِّلها، وصوت " Andy Williams" غريرًا كالبهجةِ، دافِئًا كشُوكُولا ساخنة في مساءٍ باردٍ جدًّا؛ where do I begin، تدورُ، تدورُ، وتسقُط.

عيناها وشعرها وعناد شفتيها؛ مُستندات اقترابها من جَدّتِها لأبيها؛ صانع الفخار، هكذا وَجَدَتْها شبيهة بها؛ فأهْدتْها صندوقَ الموسيقى الأثير لديها، ضمَّته إلى صدرِها وقت نُزوحِها من سوريا؛ بعد أن دُمِّرت مدينتها.

كانت الجَدَة قد تَزَوَّجَتْ من مصريّ في مُقْتَبَل حياتها، ولمَّا كانت طموحةً ومتطلعةً - على الرغم من عدم ارتيادها أية مدرسة، وفي سنواتٍ قليلةٍ لم تَعُدْ تعرف نفسها معه - فقد انفصلت عنه بعد أن عاشا معًا في بلدها، وعاد إلى بلده، غير آسفة عليه، تحمدُ ربها؛ أنها ما أنْجَبَتْ منه، ثم تَزَوَّجَتْ من بعده، وأصبح لديها أولاد وأحفاد وذكريات لا تتمسك بها.

تُديرُ المفتاحَ، فتاةُ العاجِ تدورُ، لكن لا صوت للموسيقى، تُعيدُ إدارة المفتاحِ.. مرة، اثنتين، تُلْصِقُ الصُندوق بأُذُنِها.. ولكنها لا تسمع شيئًا.

في مَتْجَر الموسيقى، نَظَرَ إليها الرجل متوجسًا؛ بعد أن أدار المِفتاح أكثرَ من مرةٍ، مُبَادِلاً رفيقته نظرات الدهشة، ولمَّا رأى إصرارَها ودموع عينيها؛ وَعَدَها بمحاولة إصلاحهِ، على أن تأتي في الغَد لاستعادته.

اشترى لها زوجها بعض الملابس؛ معظمها للنوم، لا يهم على أية حال؛ فلم تكن لترتدي سوى البالطو الأسود الذي نَزَحَتْ به من وطنها، مع لهجتها تُعْلِن للناسِ انتماءها؛ أصبحا مألوفَين لهم مثل محال الأطعمة المُنْتَشِرة، والتي تَحْمِلُ اسم الشام.

أَخَذَهَا جمالُها للمحامي؛ الذي تَكَفَّل بإحضار الزوج المصريّ وكتابة العَقْد، اتَّفقا على استمرار العلاقة الزوجية؛ حتّى إذا تَحَسَّنت أحوال وطنها، فإذا أرادت العودة فلا مَفَرَّ من الانفصال، كان يُمْكِنها أن تعمل بحضانة الأطفال مثل جارتها، لكن المحامي أقنعها بأنّ الزواج أكثر راحة، وستجد من يرعاها.

اليوم طويلٌ.. طويلٌ، وغدًا رُبما لا يأتي زوجُها أيضًا، تقف أمام النيل؛ لا يُشْبِه "العاصي" أبدًا؛ فـ"العاصي" لا يُشْبِه أحدًا، فقط يُشْبِه جَدَتها؛ زاخرٌ بالحكايات، مُسافرٌ طويلاً من "هضبة الهرمل"، مارٌ من تحت سفح "تل النبي مندو"، حائرٌ عند "قَطّينة"، عابرٌ للسدود، مُحَمَّل بحكايا البلادِ البعيدةِ، مستكينٌ في أحضان سهول "حِمص"، مقسمٌ "حماة" إلى نصفين، ناقلٌ حباتَ التينِ البريّ النهري - التي تَتَعجَّل النضج دومًا فتسقُط في مياهه- إلى بلاد لم تكُن لِتعرفها.

هل كان "العاصي" باردًا في هذا اليوم الشتويّ؛ حين راحوا لِدَفْن الجَدةِ في قريتها، تَرَكَتْهُم في منتصفِ الطريقِ، تقطعُ المسافةَ إلى النهرِ،

الحَصَى يؤلمُ باطِنَ قَدَمَيْها في الحذاءِ الخفيفِ الذي انْتَعَلَتْهُ، سَقَطَتْ مرتين، ثم قامت غارقة في التراب، اللونُ الزهريّ يزيّنُ أشجارَ "الدفْلة" على ضفافِ "العاصي"، صوتُ النواعيرِ يُخبرُها، أنّ كلّ شيء مستمرٌ؛ عدا حكايات الجَدَةِ، لكنّ صوتَ الجدّةِ الناعس حول موْقِدِ الحطبِ في الليالي الباردة؛ ينسَلُّ الآن مع شَجْو النواعير:

"قَمْحَتي أم القموح
قَمْحَتي ما بترُوح
قَمْحَتي بكف طحين
كف الطحين بتقريصة
التقريصة برغيف
والرغيف بجاجة
والجاجة بخروف
والخروف بجمل
والجمل بعروس
ونوس يا سراجي ونوس
والقمحة جابت عروس"

لِحاءُ الأشجارِ مُتشبعٌ بالرطوبةِ، بدأ يتساقط بعد أن كَوَّنَ قشرةً، انْفَصَلَتْ عن الشجرة؛ مقدمة لسُقوط الشجرة بالكامل: [باردٌ يومك يا جَدَتِي؛ كالثلج، كقلوبهم؛ كيف يَجْرُؤون على تَرْكك هُناك، وحدك، في الصَقِيعِ، ويعودون!]

على ضوء الشَمْعَة الوحيدة في المَتْجَر؛ التي أشْعَلَهَا حينما انقطعَ التيارُ الكهربائيّ، أَخْرَجَ صُندوقَ الموسيقى، وَزْنُهُ الثقيل وصناعته المُتقنة مع النقوش الدقيقة على حوافِهِ، والعاجُ الأصيلُ المُصَنَّع منه جَسَد الفتاة الراقصة؛ كلّ ذلك يؤَكّد كَوْنَه عتيقًا، ورُبَّما "صناعةٌ ألمانية"، كما أخْبَرَتْهُ المرأةُ السورية، أدارَ المفتاح فانْسَابتْ الموسيقـى نقيةً، عميقـةً؛

كأنمَا تأتي من بئرٍ مُخَبَّأٍ فيه أسرار الجمال، يهمس لنفسه:

Where do I start?

سَلَّمَ الصُندوق إلى زوج المرأةِ على آخر ضوء للشمعةِ المتهالكة، رافضًا أيّ مَبْلغ نقديّ؛ فالمكان لا يقوم نشَاطه على إصلاح الأشياءِ، كَمَا أن الصندوق ليس فيه عيبًا، وقد تَمَتَّع بالتحفةِ الفنيةِ التي تَرَكَتْهَا المرأةُ المسكينةُ، كادَ ينصح الزوجَ بعَرْض زوجتَه على طبيبٍ نفسيّ، لكنّ الرجلَ الْتَفَتَ في طريقهِ للخروج، توَقّف.. وأخرجَ الصُندوقَ من علْبَتِه.. أدارَ المفتاحَ.. الْتَفَتَ مدهوشًا إلى صاحب المتجر، كاد أن يقولَ له شيئًا، لكنّه تَرَدَّد، أدار المفتاحِ مَرة، مَرتين، مُلْصِقًا الصُنْدُوقَ بأُذُنِه؛ لكنه لم يسمع شيئًا.